

في تجديد موضوع الشوق

سُوف عبّيد

عَبَّرَ الشُّعْرَاءُ الْعَرَبُ فِي مُخْتَلَفِ الْأَعْصَارِ وَالْأَمْصَارِ عَنِ الشُّوقِ وَالْحَنِينِ مُسْتَعْمِلِينَ سِيَجْلًا مِنْ الْكَلِمَاتِ الْمُرَادِفَةِ وَالصُّورِ الدَّالَّةِ عَلَى الْمَعَانِي الْمُنْتَقَرَةِ فِيهَا - وَلِئِنْ إِمْتَازَ الْكَثِيرُ مِنْهَا بِقَدْرِ كَبِيرٍ مِنْ رَهَافَةِ الْإِحْسَاسِ عَلَى نَمَطِ جَمَالِيَةِ الْبَلَاغَةِ الْقَدِيمَةِ - فَإِنَّهَا كَانَتْ تَنْحُو مَنْحَى التَّعْبِيرِ الْمُبَاشِرِ كَقَوْلِ عَنْتَرَةَ ابْنِ شَدَّادٍ:

يا دارَ عِبلَةَ بِالْجِوَاءِ تَكَلِّمِي ** وَعِمْيِ صَبَاحَا دَارَ عِبلَةَ وَاسَلِّمِي

ومثل قول قيس بن الملوح:

أَمُرُّ عَلَى الدِّيَارِ دِيَارِ لَيْلَى ** أَقْبَلُ دَا الْجِدَارِ وَدَا الْجِدَارِ

ويصرح البحتري بشوقه قائلاً:

شَوْقُ إِلَيْكَ تَفِيضٌ مِنْهُ الْأَدْمُعُ ** وَجَوَى عَلَيْكَ، تَضِيقٌ مِنْهُ الْأَضْلَعُ

كما باح ابن زبدون بذلك:

إِنِّي ذَكَرْتُكَ، بِالرَّهْرَاءِ، مُشْتَقًا ** وَالْأَفْقَ طَلَقَ وَمَرَأَى الْأَرْضَ قَدْ رَاقَا

ومع تطوّر الشعر العربيّ بفضل المدّ الرومنطقيّ أضحت الشّوق من

معاني المعاناة الوجوديّة كما في قول الشّابي:

يَنْقُضِي الْعَيْشُ بَيْنَ شَوْقِي وَيَأْسٍ ** وَالْمُتَى بَيْنَ لَوْعَةٍ وَتَأْسٍ

وفي قوله:

وَمَنْ لَمْ يُعَانِقْهُ شَوْقُ الْحَيَاةِ ** تَبَخَّرَ فِي جَوْهَا وَإِنْ دَثُرَ

ويجعل الشّابي من - الأشواق التائهة - عنواناً لإحدى قصائده المتميّزة وعلى خطى الشّابي جعلت فدوى طوقان - أشواق حائرة - عنواناً لإحدى قصائدها

أيضا وهذا مصطفى خريف يختار - شوق وذوق - عنوانا مُلخصا لجميع قصائد ديوانه.

وقد إنبرى الشعر الحديث للتعبير عن الوجدان المعاصر فسلك مسالك أخرى على مستوى المبنى والمعنى ويمكن أن تكون قصيدة - قوافل الشوق - لوهيبة قوينة وقصيدة - المقهى الأزرق - لعبد المجيد يوسف أنموذجين في موضوع الشوق ضمن النمط الجديد من الشعر الذي أضحى من سمات بعض المدونات الشعرية العربية على مدى سنوات مطلع القرن الحادي والعشرين.

قوافل الشوق - وهيبة قوينة

أجالس كرسيك المستريح أمامي...

أجالس فنجان شوقي

وأحضن طيفك يمضي

فأهمس سرّا... وأهذي... تعال

تعال...

ولا تبتعد إلا نبضا بنبضي...

بنبضي قوافل شوق تمرّ ربيعا... خريفا

وتحطب من غصّة الكلمات قصيدا

وتبذر في الريح كرما

وتجني عناقيد صمتي بصمتٍ

وصمتي... وأنت تعير خطاك إلى الرّجلِ

محرابُ قلبي

وبوح الأناشيد

جزس القوافي

وصحوة أحلاميّ اليانعات

ونبض الورود على الشّفة الدّابله

ويذبل نبضي

ويُخفي ضياءُ المصابيحِ عِقْدَ السَّماءِ
وَأَلْقَى أَمَامِي...
ثلوج المدى قد ترامت بأقصى خطوطٍ بكفِّي
وفنجانِي الفارغَ مستريحاً
وكرسِيّ طيفٍ...
يجالس ضوءاً بأعماقِ روحي...

المقهى الأزرق - عبد المجيد يوسف

أخطأت النّادلة
فأحضرت لنا كأسين
كأنّ بها حـوْلا
نحن واحد مُتّحد، فكيف رأتنا اثنتين؟
الطّرف يأخذ بالطّرف
والنّبض مشوب بالنّبض
والعين تسيح في العين
والجزء يذوب في الجزء... والصّوت صدى
روحان في جسد... جسدٌ في روحين
واليوم أعود إلى ذات المقهى
وأنا غير أنا
مختلف... منشطر وكسير
أجلس في ذات الرّكن
قمرا متهرئاً وقديم
تقف النّادلة
ثمّ تولّي مدبرة حيرى

تبحث في السُّلَّة عن شيء يشبهني
كوب مشطور نصفين.

إنَّ قصيدة - قوافل الشُّوق - إستحضارٌ لطيفٍ غائبٍ ودعوةٌ للأنس به وذلك
بالمجالسة والحديث معه حول فنجان قهوة فالشُّاعرة تتخيَّله جالسا على
كرسيه وتشعر به قريبا جدا منها بل تحسُّ به من خلال نبضاتها فهو قد صار
أقرب إليها من حبل الوريد من خلال المجالسة والاحتضان والهمس وإذا ما
ابتعد عنها فإنَّ المسافة لا تتجاوز الزَّمن الذي يفصل بين نبضة ونبضة فكأنَّه
بذلك يزداد قُربا ولكنَّه قُرب كالسُّراب فعندما تناديه وقد حسبته جالسا أمامها
أو بقربها تكتشف أنَّه لا يعدو أن يكون طيفا على الكرسي...
من نَمَّة تتهاوى اللَّحظات البهيجة من علياء الوجد والحبور إلى الفراغ
السَّحيق فيتحوَّل الرَّبيع إلى خريف والهمس إلى عُصَّة والطَّيف إلى حطب
والبوح والآناشيد والأحلام اليانعات والورود تغدو إلى ذبول وانكسار فبعد لزيد
الحلم أفاقت على كوابيس الغياب ولكن دون السُّقوط في اليأس والعدمية
بل إن خاتمة القصيدة - وقد سادت العتمة في أرجائها - فإنها تُفضي إلى التُّور
في الختام.

القصيدة إذن تصوير لحالة الشُّوق عندما يشتدُّ حتَّى يتخيَّل المشتاق حضور
المشتاق إليه فيراه بقربه يناجيه ولكنَّه ما يكاد يُوقن بوجوده حتَّى يكتشف
الخواء والخلاء ورغم تلك الخيبة فإن التَّفاؤل يظل باسطا نوره في آخر
القصيدة.

ومن ناحية المبنى فالقصيدة تمثِّل حركة لولبيَّة إذ تبدأ كلَّ حلقة تقريبا من
حيث انتهت السَّابقة كقولها:

فأهمس سرًّا... وأهذي... تعال
تعال...

ولا تبتعد إلَّا نبضا بنبضي
بنبضي قوافل شوق تمرُّ ربيعا...

وكقولها أيضا:

وتجني عناقيد صمتي بصمتٍ
وصمتي... وأنت تعير خطاك إلى الرَّحْلِ...

ذلك ما يجعل القصيدة تدفع بعضها بعضًا في حركة تصاعديَّة قائمة على توالي

الصُّور والمناظر بداية من الكرسيِّ والفنجان إلى الرِّجل والمحراب ومرورا بالقوافل والورود وانتهاءً بالتلوج والصِّياء ممَّا يجعلها عديدة الإحياءات عميقة الأبعاد فهي بطرقها موضوع الشوق عبّرت عنه بمحامل الملح والرّمز أكثر من محامل البوح والتصريح وتلك من أساليب الإضافات والتجديد وسمات البحث والابتكار.

وفي نفس السِّياق تقريبا أي التّعبير عن الشُّوق والحنين بأسلوب جديد مبتكر نقرأ - المقهى الأزرق - لعبد المجيد يوسف الذي نهج فيه أسلوب السُّرد لكأنّه ينقل لنا خبرا أو يصف واقعة بعيدا كلّ البعد عن معجم الشُّوق وما قاربه من سِجّلات الحبِّ والشُّجون حيث نقل لنا حالتين أو واقعتين. تتمثّل الأولى في جلوسه مع الحبيبة في ركن مقهى وهما في حالة إنسجام تامّ ثمّ صوّر لنا جلوسه في نفس المكان وحيدا مشتاقا إلى ذكرى الجلسة الأولى وقد بدأ القصيدة قائلا:

أخطأت النادلة

فأحضرت لنا كأسين

كأنّ بها حوْلا

غير أنّ القصيدة تنزاح انزياحا غريبا عندما نعلم أنّ الشّاعر كان من الإنسجام والتألف والتّوحد مع حبيبته حتّى صار - وهما الإثنين - واحدا:

نحن واحد مُتحد، فكيف رأنا اثنيْن؟

الطّرف يأخذ بالطّرف

والنّبض مشوب بالنّبض

والعين تسيح في العين

والجزء يذوب في الجزء... والصّوت صدى

روحان في جسد... جسدٌ في روحيْن

لذلك تعجّب الشّاعر من التّأدلة عندما أحضرت لهما كأسين إثنتين! وهنا يكمن الوقع الشّديد في التّعبير بالصّورة والرّمز عن قوّة الإنصهار بين الحبيين كقول بيّشارة الخوري:

لو مرّ سيف بيننا لم نكن نعلمُ هل أجرى دمي أم دمكُ

ثمّ تعجّب الشّاعر ثانيةً عندما عاد مرّة أخرى وحده في حالة نفسيّة متدهوة
عبر عنها بصورة القمر المهترئ القديم وتعجّب النّادلة التي عوض أن تُقدّم
إليه كأساً فإنّها سارعت حيرى تبحث عن كوب مشطور إلى نصفين رمزا
للفراق أو كناية عن البعد بينه وبين حبيته:

تقف النّادلة

ثمّ تُولي مدبرة حيرى

تبحث في السّلة عن شيء يشبهني

كوب مشطور نصفين.

فالقصيدة إتخذت من السرد والرّمز والمفاجأة عناصر أساسية للتعبير عن
الحالة النفسيّة للشّاعر في حالتي الإئتلاف والإختلاف مع حبيته وقد ركز على
حضور النّادلة وتصرفها العجيب في المناسبة الأولى والثّانية وفي كلّ مرّة
يكون ردّها فعلها عاكسا لوجدان الشّاعر.

إنّ قصيدي - قوافل الشّوق - و - المقهى الأزرق - يمكن أن نعتبرها إنجازا
شعريّا بما فيهما من إضافة وبحث في موضوع قديم جديد ألا وهو الشّوق
والحنين .

رادس - 1 ماي 2015